صندوق غزة

- لو سمحت يا حبيبي ..
التفت ورائي ، تاركاً اللعب مع العيال ، وإذ بأربعة شيوخ متشابهين في كل الأشياء ، قلت لأحدهم :
- أنا ..؟!
- نعم.. نحن غرباء عن هذه المدينة ، وجئنا متطوعين لجمع التبرعات لضحايا (غزة)، ونريدك أن تساعدنا، وتسير معنا لدق أبواب سكان هذه المدينة ؛ لأننا لا نعرف أسماءهم، على الفور سقطت من يدي الكرة، بعدما أصبحت أسير كلماته التي ارتدت لباس الوهن والألم ، ووجدتني أنساق معه دون أن أدرى ..
- لو لم تكمل المباراة ستصبح مهزوماً ..
قذفني صديقي (خالد) بكلماته من خلفي بعدما تركت اللعب..
سعيداً رحت أسير بجوار الشيوخ الأربعة ذوى اللحى الطويلة ، اثنان منهم يحملان بين أيديهما صندوقاً خشبياً كبيراً كتب عليه باللون الأحمر القاتم عبارة
(لمساعدة ضحايا غزة)
ومن حوله صور لأطفال ونساء وشيوخ قتلى .
رائحة المسك الخارجة من ثيابهم المختلطة بالورع والتقى

راحت تفوح بشدة من حولي ، وفى يد كل منهم مسبحة يذكرون الله من خلالها ..
سيرى بجوارهم جنباً إلى جنب أشعرني – ولأول مرة- أنى صرت رجلاً.. نعم رجلاً (بحق وحقيقي) يعتمد عليه ، ودليلي على ذلك اختيار هؤلاء الشيوخ لي كي أساعدهم في رحلتهم للغوص داخل المدينة ..
(ولد يا أحمد)
فجأة انشقت الأرض وأخرجت من باطنها تلك الكلمات
التي دوماً ترددها أمي، عندما تنادى علىَّ؛ لتطلب منى شيئاً ..
مغتاظاً رحت أشيح بوجهي عن تلك الكلمات ، حتى اختفت من أمامي سريعاً ..
استوقفتهم أمام بيت الحاج (عبد العال) ورحت أدق بابه ، فتحت زوجته ، سألتها عنه ، فعرفت أنه قد سافر لشراء المواشي ، غرزت عينيها في الشيوخ الأربعة ، ومن ثم سألتني عن السبب ، وقبل أن أرميها بالإجابة سبقني أحد الشيوخ من الخلف :
- جئنا لجمع التبرعات من المال لضحايا (غزة) التي تحترق الآن ..
أتبعه الشيخ الثاني بكلماته:
- يقول رسول الله صلىَّ الله عليه وسلم " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا "
تركتنا ودخلت ، ثم عادت مسرعة حاملة بين يديها (بوك) أسود اللون منتفخاً عن آخره، وكأنه في أيامه الأخيرة من الولادة ، أخرجت كل ما بداخله من فلوس داخل الصندوق الذي فغر فاه عن آخره ، الشيخان المتحدثان نظرا إلى

بعضيهما ثم تبسما ، قال أحدهما :
- بارك الله فيكِ .. وجعله في ميزان حسناتك ..
تركناها ورحت أدق باب الأستاذ (عبد النبي) وما إن فتح الباب على مصراعيه حتى قال أحد الشيوخ :
- السلام على من اتبع الهدى ..
رد الأستاذ (عبد النبي) وعلى وجهه علامات التعجب :
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..
هم الشيخ الثاني يقول :
- جئنا إليك متوسمين فيك خيراً ؛ لتساعدنا بما تجود به نفسك من المال لضحايا إخواننا في (غزة) ..
أتبعه الشيخ الثاني بكلماته السريعة كطلقات رصاص ، الواقفة على طرف لسانه :
- يقول رسولنا الكريم محمد صلىَّ الله عليه وسلم "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته "
رد الأستاذ (عبد النبي) في خشوع :
- صدق رسول الله صلىَّ الله عليه وسلم ..
ثم أردف يقول وعلامات الحزن والأسى بادية على وجهه
عندما نظر إلى الصور الملصقة على الصندوق :
- حسبي الله ونعم الوكيل ، دقيقة واحدة ..
دلف إلى البيت وهو يدعو على إسرائيل، ومن وراء
إسرائيل .. لحظات وخرج في يده الكثير من الأموال التي وضعها داخل الصندوق ، ومن خلفه خرجت مجموعة التلاميذ - الذين

حضروا لأخذ حصة درس اللغة العربية راحوا تباعاً يخرجون من جيوبهم فلوساً قليلة ورقية وفضية ليضعوها داخل الصندوق ..

- بارك الله فيكم وأكثر من أمثالكم ..

قالها أحد الشيوخ ، ومن خلفه قال الشيخ الثاني :

- بالنجاح والفلاح والتوفيق إن شاء الله تعالى ..

وانصرفنا صاعدين إلى باقي شقق العمارة ، ولم أترك بيتاً في المدينة إلا وطرقته ، حتى امتلأ الصندوق عن آخره وفاض ، ولم يتبق غير بيتنا الذي جعلته آخر البيوت حتى ترى أمي وتسمع ما فعلته مع الشيوخ كي تتأكد أنى صرت رجلاً ..

استوقفني أحد الشيوخ ، بعدما راح يتبادل النظرات فيما بينه وبين باقي الشيوخ طويلاً ، ثم راح يقول مبتسماً :

- جزاك الله خيراً .. خذ جزاءك على ما فعلته من أجل ضحايا غزة ..

مد يده نحو الفلوس النائمة في هدوء فوق بعضها داخل الصندوق ، سحب جنيهاً ، مد يده نحوى ، وقبل أن يدسه في جيب قميصي، تراجعت على الفور ممتنعاً، وأنا أقول :

- أقسم بالله لن آخذ شيئاً..

أدخلت أصابعي في فم جيب بنطالي وأخرجت (جنيهاً ونصفاً) كل رصيدي في بنك الحياة، فقد نجحت في ادخارها من مصروفي على مدار الأسابيع الأربعة الماضية، دون أن تعرف أمي عنها شيئاً، ورحت أضعها داخل الصندوق..

راح الشيخ يقبل رأسي ، ومن خلفه راح الشيوخ الثلاثة

يفعلون نفس الشيء ، وسرعان ما انصرفوا وهم يدعون لي بالتوفيق والفلاح والنجاح ..
الفرحة التي غمرتني من جراء نجاح مهامتي في مساعدة ضحايا (غزة) أشعرتني أنني باستطاعتي الطير في الهواء..
فجأة شيء ما جثم فجأة فوق صدري ، حتى جعل قلبي يدق دقات سريعة متتالية على غير العادة ..
هربت الابتسامة سريعاً ، وحل محلها خوف شديد ، خوفي على الشيوخ والصندوق من أن يعترضهم أحد ، جعلني أتسلل وراءهم دون أن يشعروا بي ، رغم أن مدينتي آمنة مطمئنة ، إلا أني قررت أن أقطع الشك باليقين ..
يدخلون شمالاً في يمين ثم في شمال ، وأنا أسير وراء خطواتهم ، حتى توقفوا أمام سيارة فارهة كانت في انتظارهم على مشارف المدينة ، تبسمت ، وهدأت دقات قلبي بعدما هرب الخوف ، وحل محله الأمن والطمأنينة .. ركب اثنان منهم بجوار السائق ، ومن ورائهم ركب الشيخان الآخران واضعين الصندوق فوق أرجلهما ، نزع أحد الشيوخ لحيته الطويلة ، وجذب (التلفيحة) المرسوم عليها علم (فلسطين) ورمى بهما فوق الكرسي الخلفي ، ومن ورائه فعل الشيوخ الثلاثة ..
جن جنوني ..
ارتجف جسدي النحيل ، وتلبسني الخوف الشديد ..
رحت أجر قدمي المكبلتين بأثقال الهزيمة القاسية وخيبة الأمل المفقود؛ كي أخبر أهالي المدينة ، ولكني لم أستطع ، قررت أن أصرخ في وجوههم صرخة احتجاج ، ولكن الدهشة عقدت لساني ..

قال أحدهم للآخَر الجالس بجواره :
- كيف أتتك هذه الفكرة التي لم تخطر لأحد على بال ..؟!
ضحك الآخَر ثم رد قائلاً :
- من عبط وهبل وطيبة الشعب المصري ..
عقب آخر :
- رزق الهبل على المجانين ..
انخرطوا جميعاً في الضحك المتواصل ..
قال رابعهم :
- تفتكر الحرب على (غزة) سوف تستمر ..؟!
أجابه الآخر :
- لماذا تسأل هذا السؤال ..؟!
- لأني سمعت أن هناك قمة عربية سوف تعقد غداً لوقف الحرب ، ولم الشمل العربي ..
ضحكوا جميعاً حتى دمعت أعينهم ، ثم قال أحدهم :
- أية قمة، وأي شمل عربي..؟!،الخوف ليس من انعقاد قمة؛ لأنها حتماً سوف تخرج نتائجها صفراً، مثل سابقتها من القمم، ولكن الخوف الحقيقي أن تتوقف إسرائيل عن ضربها لغزة، ادعوا أن تستمر الحرب حتى نأكل عيشاً .
انطلقت السيارة مخلفة وراءها غباراً كثيفاً..